٩٩/٤/١٢/١٠

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

العدد ١٧١

أيار ـ مايو

١٩٧٦

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٩١٤
التاريخ ٢/ ١٢/ ٢٠١٨

رئيس التحرير : صفوان قدسي
أمين التحرير : خلدون الشمعة
المشرف الفني : نعيم اسماعيل

عرب ولكن مستشرقون

صفوان قدسي

... انهم عرب ، لكنهم عندما يكتبون فان القارىء لابد وأن يعتقد للوهلة الاولى انهم مستشرقون . فهم يسلبون من أمتهم كل الفضائل ، ويلصقون بها كل الرذائل ، ولا يبقون لها من تاريخها ، أو من تراثها ، أو من حضارتها ، غير القليل القليل .

بل إن المستشرقين ربما كانوا أقرب الى العرب من هؤلاء العرب . فبعض المستشرقين يعترف لهذه الامة ببعض الفضائل ، وبعضهم الآخر لا يسلبها كل ما تعتز به وتفخر ، وبعضهم الثالث لا يجردها من تاريخها وتراثها وحضارتها . بل ان بعض هؤلاء ينصف العرب ويضعهم في مكانهم اللائق بهم من خارطة التاريخ الحضارية . بل انني قرأت لبعض المستشرقين كلاما على العرب فيه قدر كبير من الانصاف والتجرد والنزاهة . ولو قدر لباحث مقتدر أن يجمع كل ما كتبه هؤلاء المستشرقون عن العرب ، فانه سوف يقع على جزء من هذا الكلام المكتوب ، فيه من حسن الفهم للحضارة العربية ولكل ما انجزه العرب في مختلف ميادين

العلوم والفلسفة والثقافة والأدب ، ما يجعل هذا الكلام يتصف بالموضوعية .

أحاول أن أقول ان الاستشراق لا يمكن أن يكون كله معاديا للعرب . وأكثر من ذلك ، فانني أحاول أن أقول ان في بعض جوانب هذا الاستشراق انصافا للعرب يشهد بأن من بين هذه الكثرة الكاثرة من المستشرقين ، يوجد من حاول أو يحاول أن يفهم العرب بعين مجردة وخالية من أية نظرة مسبقة ، أو من أي تعصب تاريخي ، أو من أية رغبة في الاساءة الى الحضارة العربية .

أما المستشرقون الذين أود أن اتحدث عنهم هنا ، فهم عرب ، وهم يعيشون بيننا ، لكنهم يتعاملون مع بقية العرب كما يتعامل المستشرق المنحاز ، والمتعصب ، والذي يصدر في تعامله عن رغبة مسبقة في الاساءة الى العرب ، وفي رميهم بكل الرذائل ، وفي سلبهم من كل الفضائل .

فهم ينظرون الى العرب على أنهم قوم مبتلون بداء اسمه التعصب القومي ، وهو داء يبرئون منه كل الاقوام الاخرى ، ويصمون به العرب دون غيرهم من أقوام الارض . وهو يستعيرون من اللغات الاجنبية تعبيرا يعتبرونه أدق في التعبير عن التعصب القومي ، وهو «الشوفينية». فالعرب في نظرهم شوفينيون لانهم يريدون وحدة أمتهم . والعرب في نظرهم شوفينيون لانهم يعتزون بتاريخهم . والعرب في نظرهم شوفينيون لانهم يحاولون بعث حضارتهم واحياءها . والعرب في نظرهم شوفينيون لانهم يجدون في قوميتهم العربية ملاذا يحتمون به من كل ما يهددوجودهم . والعرب في نظرهم شوفينيون لانهم لا يقبلون بأن تغزوهم عقائد من خارج وطنهم . والعرب في نظرهم شوفينيون لانهم متمسكون بلغتهم القومية ، ولانهم اكتشفوا لهذه اللغة عبقرية خاصة ، ولانهم وجدوا في هذه اللغة عاملا من عوامل وحدتهم واستمرار وجودهم .

والغريب في الامر هو أن هذا التعبير المنقول عن لغات أجنبية أراد أصحابها أن يعثروا على المعادل اللغوي لحالة كانت قائمة في أقطارهم ،

ولعلها ما زالت قائمة بصور وأشكال شتى ، وهي الحالة التي تتجلى في اعتقاد يسيطر على شعب من الشعوب بأنه أفضل شعوب الارض ، وبأنه يتمتع بخصائص ويتحلى بمزايا يفضل بها على غيره من الشعوب ... أقول ان الغريب في الامر هو أن هذا التعبير عندما انتقل الى لغتنا العربية أسيء استعماله الى الحد الذي يجعل أي متتبع لمسار هذا المصطلح والحالات التي استعمل فيها ، يعتقد أن العرب دون غيرهم من شعوب الارض قاطبة ، مبتلون بهذه الرذيلة التي يسمونها التعصب القومي ، أو يطلقون عليها اسم الشوفينية .

والاغرب من ذلك هو أن هؤلاء الذين تقصدوا استعمال هذا التعبير على طريقتهم الخاصة ، يعرفون ربما أكثر من غيرهم ، أن العرب هم أقل شعوب الارض ابتلاء بهذا الداء . بل لعلهم لم يبتلوا بهذه الرذيلة الى الحد الذي جعلهم في وقت من الاوقات يصلون الى حالة من التسامح أعطت اعداءهم فرصة الانقضاض عليهم والاجهاز على حضارتهم .

اريد أن أقول أن العرب المتهمين بأنهم مبتلون بداء التعصب القومي ، ليسوا بريئين من هذه التهمة فحسب ، وانما هم في الوقت نفسه مقصرون في حق أنفسهم ، وفي حق تاريخهم ، وفي حق حضارتهم . وهم لكي يكونوا في منجاة من هذه التهمة التي ألصقت بهم ، وقعوا في حالة أخرى هي بالتحديد نقيض حالة التعصب القومي . بل ان قراءة التاريخ العربي تفصح عن حقيقة ناصعة في وضوحها ، وهي أن العرب كانوا متسامحين في هذه المسألة ، ان لم نقل انهم كانوا متهاونين ، مما أدى بهم في نهاية المطاف الى النتيجة التي انتهوا اليها ، والتي تمثلت في خضوعهم لغيرهم من الاقوام غير العربية خضوعا فرضت معه هذه الاقوام على العرب هيمنتها القومية .

وأكثر من ذلك ، فان قراءة التاريخ العربي تضعنا أمام حقيقة أخرى لا تقل وضوحا ، وهي أن العرب كانوا أرحم بأعدائهم من رحمتهم بأنفسهم ، وأكثر تسامحا معهم من تسامحهم مع بني قومهم . بل لقد وصل الامر

في بعض الاحيان الى حد أن السلطان أو الحاكم أو الخليفة ، سمه حكمه وسلطانه .

انني أفهم أن يصدر اتهام للعرب بأنهم مبتلون بهذا الداء ، عن مستشرق منحاز ومتحيز يرى في هذه اليقظة القومية خطرا يهدد مستقبل الحضارة التي ينتمي اليها ، لكني لا أستطيع أن أفهم صدور مثل هذا الاتهام عن مثقفين عرب من المفترض انهم يحبون امتهم التي ينتمون اليها ، وقوميتهم التي يحتمون بها .

انني أفهم أن يصدر اتهام من هذا القبيل عن مستشرق درس الحضارة العربية وتعمق في فهم التراث العربي ، وخلص بعد ذلك الى نتيجة مفادها أن اليقظة القومية العربية الراهنة يمكن فيما لو منحت فرصة التعبير عن نفسها ، أن توقظ لدى العرب حسهم الحضاري ، لكني لا أستطيع أن أفهم صدور مثل هذا الاتهام عن مثقفين عرب يفترض فيهم الحرص على أن تعود أمتهم الى امتلاك زمام المبادرة مرة أخرى ، وأن يعاود قومهم صعودهم الحضاري .

انني أفهم ان يصدر اتهام من هذا القبيل في عصر يكون فيه العرب قد استقروا فوق أرضهم ، وأقاموا دولتهم القومية ، لكني لا أفهم أن يصدر هذا الاتهام في فترة تبدو فيه قوميتنا العربية جريحة ومهددة .

★ ★ ★

صدر حديثاً

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

قصة المادة

السيبرنية والكون

ترجمة : وجيه السمان